

قانون الصراع الفكري

- نداء إلهي عام
- أمة واحدة
- اختلاف الأمم
- استدراج
- خشية المؤمنين
- الإيمان بآيات الله
- الإخلاص
- الإيمان بالرجعي إلى الله
- السابقون السابقون
- فضل الله وعدله
- غمرة القلوب
- منقلب الكافرين
- أسباب العذاب

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

يَتَّيَّبَهَا الرَّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاَعْمَلُوْا صٰلِحًا اِنِّیْ بِمَا
تَعْمَلُوْنَ عَلِیْمٌ ﴿٥١﴾ وَاِنْ هٰذِهِۦ اُمَّتُكُمْ اُمَّةً وَّاحِدَةً وَاَنَا رَبُّكُمْ
فَالْقَوْنَ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوْا اَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُوْنَ ﴿٥٣﴾ فَذَرُّهُمْ فِيْ غَمْرَتِهِمْ حَتّٰی حِيْنَ ﴿٥٤﴾ اَيْحَسِبُوْنَ اَنَّمَا
نُذِرُهُمْ بِهٖ مِنْ مَّالٍ وَبٰیْنِ ﴿٥٥﴾ نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُوْنَ
﴿٥٦﴾ اِنَّ الَّذِيْنَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُوْنَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِيْنَ هُمْ
يَتَّبِعَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُوْنَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِيْنَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُوْنَ ﴿٥٩﴾
وَالَّذِيْنَ يُؤْتُوْنَ مَا آتٰوْا وَقُلُوْبُهُمْ وَجِلَةٌ اَتَتْهُمۡ اِلٰی رَبِّهِمْ رٰجِعُوْنَ ﴿٦٠﴾
اُولٰٓئِكَ يُسْرِعُوْنَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سٰبِقُوْنَ ﴿٦١﴾ وَلَا تُكَلِّفُ
نَفْسًا اِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتٰبٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُوْنَ ﴿٦٢﴾
بَلْ قُلُوْبُهُمْ فِيْ غَمْرٍ مِّنْ هٰذَا وَلَمْ اَعْمَلْ مِنْ دُوْنِ ذٰلِكَ هُمْ لَهَا
عٰمِلُوْنَ ﴿٦٣﴾ حَتّٰی اِذَا اَخَذْنَا مُتْرَفِيْهِمْ بِالْعَذَابِ اِذَا هُمْ يَجْحَرُوْنَ ﴿٦٤﴾
لَا تَجْحَرُوا الْيَوْمَ اِنَّكُمْ مِّنَّا لَا تُنصَرُوْنَ ﴿٦٥﴾ فَذٰكَرْتُمْ اٰیٰتِيْ
نُتٰلٰی عَلَیْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلٰی اَعْقَابِكُمْ لَنٰكِصُوْنَ ﴿٦٦﴾ مُّسْتَكْبِرِيْنَ بِهٖ
سَمِرًا تَهْجُرُوْنَ ﴿٦٧﴾ ﴿المؤمنون الآيات من ٥١ - ٦٧﴾

نداء إلهى عام

قال

الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (٥١) ﴿ المؤمنون الآية ٥١ .

هذا نداء من الله تعالى لكل نبي فى زمانه بأن يلتزم الأكل من الحلال الصافى وأن يستقيم على المنهج الإلهى استقامة كاملة..

فقوله تعالى ﴿ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ هو دعوة إلى الكسب الحلال الذى لا يعرف ربا أو ريبة، ولا يشتمل على غش أو خديعة، ولا يظلم الناس أموالهم..

فإذا تحقق الكسب الحلال وجب أن يتبعه الإنفاق المأمور به بلا إسراف أو تقتير، ومن غير مَنْ ولا أذى، وبلا نسيان للمنعم التفضل سبحانه وتعالى.. فالمال الطيب إنما يتحقق بالحلال فى المورد، والبر فى المصرف، فإن اختل جانب لم يعد المال طيبا، فالذى لا يحرص على الحلال فى جمع المال يكون ماله خبيثا، والذى يكنز المال أو ينفقه فى معصية يخسر ما جمع، ويشقى بما حصل، ويكوى به فى نار جهنم..

وقوله تعالى ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ هو دعوة إلى الالتزام بشرع الله ودينه فى كافة شئون الحياة، ويكون العمل صالحا إذا وافق الشرع وتحقق فيه الإخلاص..

فلابتداع فى الدين جريمة، قال عليه الصلاة والسلام.. «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

والرياء محبط للعمل، مضيع للثواب، والله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم..

وهذه الدعوة إلى طهارة المال وإصلاح الأعمال هى دعوة الله إلى جميع المؤمنين، لأن الأنبياء هم القدوة والمثل الأعلى.. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ وقال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٢) البقرة الآية ١٧٢.

وجاء قوله تعالى ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١) تنبيها على تحقيق كمال المراقبة لله وتمام الإخلاص له سبحانه فالله تعالى لا تخفى عليه خافية، يعلم السر والنجوى..



أمة واحدة

قال الله تعالى ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ المؤمنون الآية ٥٢.

تحدث هذه الآية الكريمة عن الدين الحق الذي تنادى به الفطرة، ويدعو إليه العقل، ونزل به الوحي الأمين على أنبياء الله ورسله في كل زمان ومكان..

إنه توحيد الله في ربوبيته وألوهيته، والاستعداد للحساب والجزاء ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ آل عمران الآية ٣٠.

وهذا المعنى هو المشار إليه في قول رسول الله ﷺ «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات، ديننا واحد».

والإخوة لعلات هم أولا الرجل من نسوة شتى.

إن الرسائل الإلهية التقت كلها على أصول العقيدة والعبادة والأخلاق،

ويعبر عن ذلك ميثاق بنى إسرائيل - على سبيل المثال - فقد قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَا آلَ الَّذِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْكَائِمِينَ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ البقرة الآية ٨٣.

وما وراء ذلك من تفصيلات الأحكام فى العبادة والمعاملة، فتلك قضية تخضع لظروف الزمان والمكان، فما يصلح لأمة قد لا يتناسب مع أمة أخرى، بل ما يصلح لأمة فى زمن قد لا يستمر لزمن آخر..

والحكمة واضحة فى نسخ الشرائع بعضها لبعض، فإن الطبيب— والله المثل الأعلى— قد يصف دواء لمريض ولا يصفه لمريض آخر يتشابه معه فى المرض، وقد يصف دواء لمريض فى وقت دون آخر، ولدة لا يتجاوزها..

فإنه تعالى له الخلق والأمر، وهو أعلم بعباده، وله الحكمة البالغة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١١) الملك الآية ١٤. فرسالات الله تمثل أطوار مناهج التربية الإلهية لبنى الإنسان، فيها الثوابت من أصول الدين، والمتغيرات من أحكام التشريع..



اختلاف الأمم

قال الله تعالى ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ المؤمنون الآية ٥٣.

الأصل في البشرية أنها بدأت مؤمنة موحدة، على الفطرة النقية التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى ﴿ فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الروم الآية ٣٠.

والفطرة على المستوى الجمعي تعنى أن البشرية جمعاء بدأت عقيدتها بالتوحيد الخالص لله تعالى انطلاقاً من أولية آدم عليه السلام وهبوطه إلى الأرض طاهراً مجتنبى ونبياً رسولاً..

والفطرة على المستوى الفردى تعنى قبول الإنسان للحق وإيمانه بالله وبقينه بأن للكون خالقا مبدعا حكيما لا شريك له، طالما كان الفرد سليما من آفات التقليد والهوى.

وفى ذلك يقول النبي ﷺ «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة عجماء هل تحسون فيها من جدعاء؟».

لكن الناس فى أزمان كثيرة وأماكن متعددة انحرف بهم العقل واستحوذ عليهم الشيطان فمقطعوا أمرهم بينهم زبرا، أى اختلفوا اختلافات شتى، وذهبوا مذاهب بدعة وضلال، وتفرقوا إلى أديان باطلة..

فالزبر والزبور هو القطع والأجزاء كما فى قوله تعالى ﴿أَتُونِي زُبْرَ الْحَدِيدِ﴾ الكهف الآية ٩٦، أى قطع الحديد.. والمراد بالزبر فى آية سورة المؤمنون الأحزاب والفرق..

وأصبح كل حزب فرحا بما لديه، يظن أنه على الحق، ويتهم غيره بالباطل دون وعى وتمحيص..

وظلت الأمور مشتبهة، يحكمها التقليد الأعمى والإرث الفاسد والعادة البالية وتحير الناس حتى جاء الإسلام ودعا إلى يقظة الفكر وعودة الوعى ونقاء الدين.

وفى صحيح الحديث قال عليه الصلاة والسلام «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب».



استدراج

الله تعالى ﴿ فَذَرْنُمْ فِي غَمَرَاتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤ ﴾ أَيْحَسِبُونَ
 قَالَ ﴿ أَنَّمَا نُؤَدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ٥٥ ﴾ تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا
 يَشْعُرُونَ ﴿ ٥٦ ﴾ المؤمنون الآيات من ٥٤ - ٥٦.

هذه الآيات تهز العقول والقلوب هذا، يدفع إلى عودة الوعي
 ويقظة الضمير..

إن هؤلاء المنحرفين عن المنهج الإلهي القويم غمرتهم الجهالة
 العمياء، كما يغمر الماء ويفطى الأشياء أثناء الطوفان الجارف، فعقول
 هؤلاء قد عميت فلم تعد تبصر حقا أو تدرك نورا..

لقد خدعوا بما منحهم الله من مال وبنين، وسلطان وبسطة حياة،
 وظنوا جهلا أن هذه النعم تكريم إلهي لهم، وتناسوا أن الله يمنح الدنيا
 لمن يحب ومن لا يحب وأن الله يقبض ويبسط على مقتضى الحكمة
 الإلهية وليس على مقتضى المحبة الدينية. فهم لا يشعرون بهذه
 الحقيقة، وتستهوهم متع الحياة إلى حين..

ذلك الحين قد يكون مرضا مقعدا، أو هرما مفنذا، أو موتا مجهزا،
 أو زوالا للنعمة محزنا، أو عقابا عاجلا..

والله تعالى لا يمجل بمجلة أحد، وهو سبحانه يُمهّل ولا يمهّل،
 ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ ﴿٢﴾ الطلاق
 الآية ٣.

وقد أكد القرآن المجيد هذا المعنى كثيرا، فقال ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ
 أَهْلَكْتَهُم لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ ﴿٥٩﴾ الكهف الآية
 ٥٩، وقال ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا
 يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ وَأَمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ ﴿٤٥﴾ القلم الآيات ٤٤، ٤٥.

وإذا كانت هذه الآيات تحذيرا للكافرين المجرمين فأولى بالمؤمنين
 أن يكونوا على حذر، ولا تخذعهم النعمة، فيطغيهم المال ويفسدهم
 الجاه، وما كانت الدنيا لتدوم لأحد، فإما أن يفارقها وإما أن تفارقه..
 ولهذا قال عليه الصلاة والسلام- كما رواه الترمذي:- بادروا
 بالأعمال سبعا، هل تنتظرون إلا فقرا منسيا، أو غنى مطغيا، أو مرضا
 مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجال فشر غائب ينتظر،
 أو الساعة والساعة أدهى وأمر.

فالحياة فرص يفتنمها الإنسان في عمل الخير وخير العمل..



خشية المؤمنين

قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٥٧)

تحدد الآيات هنا أوصاف المؤمنين المسارعين إلى الخيرات، وجعلت في مفتحتها الخشية من الله تعالى.. وقد جاء التعبير القرآني في هذه الآية بالإشفاق من خشية الرب سبحانه وتعالى، وقد قال الإمام الرازي في تفسيره:

والإشفاق يتضمن الخشية مع زيادة رقة وضعف، فمنهم من قال: جمع بينهما للتأكيد، ومنهم من حمل الخشية على العذاب، والمعنى: الذين هم من عذاب ربهم مشفقون، ومنهم من حمل الإشفاق على أثره، وهو الدوام على الطاعة، والمعنى الذين هم من خشية ربهم دائمون في طاعته، جادون في مرضاته..

ويرى الرازي في تحقيق المسألة أن من بلغ في الخشية إلى حد الإشفاق وهو كمال الخشية كان في نهاية الخوف من سخط الله عاجلا ومن عقابه آجلا، فكان في نهاية الاحتراز عن المعاصي..

وهكذا فالمؤمن الذي يحرص على السعادة في الدنيا والآخرة لا بد أن يكون على خشية من ربه، ولعل التعبير بالرب يوحى بسبب الخشية،

فالرب هو النعم المتفضل، الذى بيده ملكوت كل شىء، ومقاليد الأمر كله، فما لم يخش الإنسان ربه فقد عرض النعم للزوال وتعرض هو للعقاب.. فإن الله يقبض ويبسط، ويمنح ويمنع، ويعز ويذل، ويحيى ويميت مع القدرة المطلقة والسلطان الأعظم والملك الأتم الأكمل، فهو سبحانه أحق بالرهبة والرغبة، وأجدر أن يعبد فلا يكفر، ويشكر فلا يجحد..

قال تعالى ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَيَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ آل عمران الآيات ٢٦، ٢٧.

وإن غاية المؤمن ومنتهى أمله هو الفردوس الأعلى، والأمر ليس أمانى مجردة ولا آمالا معسولة، وإنما الأمر عمل وجهد وجهاد، قال عليه الصلاة والسلام- كما رواه الترمذى-: من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله هى الجنة. ومعنى «أدلج» سار من أول الليل، والمراد التبكير فى الطاعة والجد فى أدائها والحرص عليها.



الإيمان بآيات الله

قال الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ يُرْسِلُت رَيْبًا رَيْبًا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٨) ﴿ المؤمنون الآية ٥٨. ﴾

هذه هي الصفة الثانية للمؤمنين المسارعين في الخيرات، وهي الإيمان بآيات الله، وآيات الله نوعان: آيات كونية وآيات قرآنية.

فالآيات الكونية هي الليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والأرض، والبر والبحر، وكافة الظواهر الطبيعية ومظاهر الكون، فهي أثر من آثار قدرة الله عز وجل، تمسوق المتأمل فيها إلى حقيقة التوحيد الخالص لله رب العالمين..

قال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٥٣) ﴿ فصلت الآية ٥٣. ﴾

والآيات القرآنية هي الوحي الإلهي المنزل على قلب سيدنا محمد ﷺ بالهدى والنور، يبني الحياة المثلى، ويصوغ الإنسان الكامل، ويمنح سعادة الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٥٢) ﴿ الشورى الآية ٥٢. ﴾

والنص القرآني يجمع بين النوعين من الآيات، فالعلاقة بينهما وثيقة، فإن رب الكون هو الذي أنزل القرآن، فالقرآن كون مقروء، والكون قرآن منظور..

وتأمل معي هذا النص القرآني الحكيم ﴿حَمَّ ۙ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ وَأَخْلَلِفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَنَصْرَفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ الجاثية الآيات من ١ - ٦.

بالله عليك ما المراد بآيات الله المتلوة هنا؟ إنها الكون المقروء أو القرآن المنظور، وإن من أدرك روائع الصنعة آمن بقدرة الصانع، وإن من أدرك بلاغة التنزيل وإعجاز القرآن آمن أنه تنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين..

فالمسلم المسارع إلى الخيرات على وعى كامل بآيات الله الكونية والقرآنية، ويرتبط قلبه وعقله بنواميس الكون ومناهج الوحي، ويواصل مسيرة حياته في نور العقل مع الشرع..



الإخلاص

قال **الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ رَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣١)** ﴿ المؤمنون الآية ٥٩ . هذه هي الصفة الثالثة للمسارعين في الخيرات.. فإذا تحقق للمسلم خشية الله في السر والعلن، وامتلاً قلبه وعقله بالإيمان بآيات الله الكونية والقرآنية فقد ارتقت روحه وسمت نفسه فأصبح مخلصاً، أخلص لله فأخلصه الله واصطفاه..

فعدم الشرك بالله مراد به هنا الإخلاص..

والله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك، ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم.. وفي صحيح مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» وقد رد الله تعالى أشكال العبادة بلا إخلاص وأحبط أعمال المرئيين، وفي الحديث المتفق عليه عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله..»

وقد تتحقق للمسلم النية الصالحة ويقعد به العمل فيبلغ درجة العاملين، وفي حديث رواه مسلم عن أبي عبد الله جابر بن عبد الله

الأنصاري قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فقال: إن بالمدينة لرجالا،
ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم، حببهم المرض.

وفي رواية: إلا شاركوكم في الأجر.

وفي رواية للبخاري عن أنس قال: رجعنا من غزوة تبوك مع
النبي ﷺ فقال: إن أقواما خَلَفْنَا بالمدينة ما سلكنا شعبا ولا واديا إلا
وهم معنا، حببهم العذر..
فما أعظم فضل الله وما أكرم مثوبته.



الإيمان بالرجعى إلى الله

قال الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ ﴿٦٠﴾ المؤمنون الآية ٦٠.

هذه هى الصفة الرابعة من صفات المؤمنين المسارعين فى الخيرات، إنهم ملتزمون بمنهج الله، يواصلون العمل ويجتهدون فى العبادة، ولا يفرطون فى مثقال ذرة من الخير، وهم مع ذلك وجلون، يخافون التقصير ويخشون التفريط.. لأن عقيدتهم فى اليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء تجعلهم أكثر إتقانا للعمل، وأحسن أداء له..

فإن الناس إذا أيقنوا بالحساب بعد الموت، وبالجزاء بعد الحساب، وبالجنة والنار- عاشوا فى هذه الحياة الدنيا عبادا لله إخوانا، ونعموا بهدوء الضمير وسكينة النفس، وعمهم الأمن والرخاء..

وإذا فقدوا تلك العقيدة انقلب المجتمع إلى نئاب، وتربص الكل بالكل، وشقى الجميع، وساد الظلم وعم الظلام..
لقد اهتم الأنبياء جميعا بقضية اليوم الآخر وواجهوا بها أقوامهم منذ اللحظة الأولى للدعوة..

لقد نزل آدم إلى الأرض محملا هذه الوصية وملتزما بهذه القضية، قال الله تعالى ﴿ قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ

تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴿ البقرة الآيات
٣٨ ، ٣٩ .

وحذر نوح قومه مغيبة الكفر باليوم الآخر، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴿ هود الآيات ٢٥ ، ٢٦ .

وفى الوادى المقدس بسيناء تلقى موسى رسالة ربه وتكاليف الدعوة
وأسس الدين، قال تعالى ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ
ءَانِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا
مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴿ طه الآيات ١٣ - ١٦ .
وهكذا كانت دعوة كل نبي..



السابقون السابقون

قال الله تعالى ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿١١﴾﴾
المؤمنون الآية ٦١.

إن المؤمنين الصادقين يسارعون في الخيرات، ويسعون جاهدين للقيام بطاعة الله والالتزام بمنهج الوحي الإلهي..
فهم يؤدون العبادة- كما شرعت- بلا ابتداع في أشكالها، ولا نقصان في هيئاتها، ولا خروج عن حدودها.. ومن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد كما أخبر بذلك الرسول الأمين ﷺ ..

وقد جاءت أوصاف لهؤلاء المسارعين في الخيرات في آيات كثيرة من القرآن العظيم.. قال الله تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُ مَن مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ آل عمران الآيات من ١٣٣ - ١٣٦.

فقد جمعت هذه الصفات أصول الدين ومكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، وذلك بذكر ثلاث صفات هي أساس الخير كله:

أولها: الإنفاق في السراء والضراء، ومتى تخلص المرء من سيطرة المال على قلبه سلم ونجا وارتقى فالشح هو الفساد بأجمعه، وحب الدنيا رأس كل خطيئة..

وثانيها: كظم الغيظ والعفو عن الناس، وتلك هي قمة الأخلاق الإنسانية.

وثالثها: الاستغفار وملاحقة الانحراف السلوكي وتلك هي غاية العبادة ومنتهى مقاصدها فالصلاة نور والصوم جنة والحج جهاد لا شوكة فيه..

فهؤلاء المسارعون في الخيرات سابقون إلى الجنات، تغمرهم رحمة الله في الدنيا والآخرة وتكلؤهم عناية الله في كل وقت، ويحل عليهم السلام والرضوان في كل حين..



فضل الله وعدله

قال الله تعالى ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ﴿٦٢﴾ المؤمنون الآية ٦٢.

هذه الآية الكريمة توضح عدل الله في حكمه، ولطفه في تكليفه وحسابه..

إن دين الله يسر، وإن شرع الله مرتبط بالوسع، لا يخرج عن نطاق الجهد الإنساني المعتاد..

وهذا هو ما أكدته القرآن كثيرا، ففي سورة البقرة قال تعالى ﴿ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ البقرة الآية ٢٣٣، وقال جل شأنه ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ البقرة الآية ٢٨٦.

وفي سورة الأنعام قال تعالى ﴿ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ الأنعام الآية ١٥٢، وكذلك في سورة الأعراف وجاء التعبير عن هذا المعنى بأساليب أخرى، مثل قوله تعالى ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ ﴾ البقرة الآية ١٨٥، وقوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ الحج الآية ٧٨.

فالصلاة تكون من قيام أو جلوس أو على أى هيئة استطاعها المسلم.. والصيام على المقيم السليم فإن سافر أو مرض فعدة من أيام أخرى..

والحج لمن استطاع إليه سبيلا..

والوضوء والغسل يكون بالماء فإن لم يتيسر كان التيمم بديلا..

والإنفاق بقدر الاستطاعة.. قال تعالى ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ
وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾
الطلاق الآية ٧.

والجهاد بالنفس والمال فريضة على القادرين أما غيرهم فقد
استثناهم الله بقوله ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى
الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى
الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١١) التوبة الآية ٩١.

وقيام الليل أدب إسلامي يحرص عليه الأتقياء لكن ذوي الأعذار
لهم حكم خاص.. قال تعالى ﴿عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْضُوهُ فَنَابَ عَلَيْهِ فَأَقْرَعُ وَأَ
مَا يَتَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي
الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَعُ وَ
مَا يَتَسَّرَ مِنْهُ﴾ المزملة الآية ٢٠.

واقترضت حكمة الله أن يخفف التكليف ويمنح التيسير لعباده،
وأن يحاسبهم بموازين العدل وأن يسجل أعمالهم في كتاب لا يغادر
صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسيتلقاه الإنسان يوم الحساب إما
بيمينه أو بشماله..

غمرة القلوب

قال

الله تعالى ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرٍ مِّنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ (٦٣) المؤمنون الآية ٦٣.

هذه الآية الكريمة لها تفسيران:

الأول: أن يرجع الضمير في قوله تعالى ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى المؤمنين المذكورين في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ﴾ (٥٧)، والمعنى أن هؤلاء السابقين إلى الخيرات يستولى عليهم فكر الجزاء، وتفكير الثواب والعقاب، ويتساءلون عقب كل خير يفعلونه، وأمام كل صالح يقدمونه: يا ترى هل يتقبل الله منهم؟ هل العمل خالص لوجه الله؟ هل ضوابط العمل وشروطه الشرعية قد تحققت على الوجه الأكمل؟ هذه التساؤلات تجعل قلوبهم في غمرة، أى في حيرة ووجل واشفاق، ومع ذلك تتواصل أعمالهم فى البر والتقوى، ويمتد عطاء الخير على أيديهم وتظل جوارحهم مستقيمة على طاعة الله، وتتعلق قلوبهم بالمالأعلى، وتستضيئ جوانحهم بلألاء الجمال والكمال والجلال..

الثانى: أن يرجع الضمير فى قوله تعالى ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى الكفار المذكورين فى قوله ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٢) فذَرَّهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) المؤمنون الآيات ٥٣، ٥٤.

والمعنى أن هؤلاء الكافرين الخارجين على وحدة الدين، غافلون عن شرف القرآن وفضل الرسالة ونور التشريع، قد غمرهم الجهل كما يغمر الماء ويستتر الأشياء عند فيضانه وكثرته..

لقد غمرهم الجهل وعمهم الظلام وأعماهم الغى فأعرضوا واستمروا المصيبة وأقاموا على الكفر، ولهم أعمال أخرى يواصلون بها الاعتداء على القيم ومحاربة الفضائل وإشاعة الفاحشة.. وسيلحقهم الجزاء الإلهي العادل فإن الله تعالى يمهل ولا يهمل، قد جعل لمهلكهم موعداً لن يخلف.. ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (الشعراء الآية ٢٢٧).



منقلب الكافرين

قال الله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا يَجْعَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تَنْصُرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ المؤمنون

الآيات ٦٤ ، ٦٥ .

يظل الكافر والعاصي في غمرة الكفر والمعصية ، يواصل اعتدائه على القيم ، وتحريفه للفكر وانحرافه عن الفضائل ، وتغره بسطة جسم ، وينسيه فضل مال ، فلا يعرف الخالق المبدع الحكيم ولا يتأدب بأدب الشرع الحنيف ..

وفجأة تتبدل الأحوال ، وفي لحظة هي أقرب من لمح البصر تتعالى صرخات هؤلاء ، وتتوالى استغاثاتهم ، ويملاً الدنيا ضجيج بكائهم ..
ولات ساعة مندم ، لقد جاءهم العذاب من حيث لا يشعرون ، قد يأتيهم في مأماتهم ، وقد ينزل عليهم في ملهاتهم ، وقد يحل عليهم في مأكلمهم ومشربهم ، وقد ينزعهم من أحبابهم ، وقد يخرجهم عن أموالهم وحصونهم وقد يهوى بهم من علياء قصورهم إلى مكان سحيق ..

وصدق الله حيث يقول ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۗ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ ﴿٦٥﴾ الأنعام الآية ٦٥ .

وصدق الله حيث يقول ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴿ الأعراف الآيات ٩٧ - ٩٩ .

إن الصراخ والعيويل من هؤلاء المترفين لحظة وقوع العذاب لا يغنى من الحق شيئا، ولا يدفع عنهم بلاء، ولا يجلب لهم نصيرا، ولن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً..

إنهم لن ينتصروا من الله أبداً، فهو القوى القاهر، وهو الجبار المتكبر، وهو العزيز المتعال..

لقد كان الترف والغرور بالنعمة هو السبب الغالب لانحراف الإنسان قديما وحديثا، فإن نعم الله يجب أن تستخدم في شكر النعم ومنفعة الخلق..

قال تعالى ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴿ إبراهيم الآية ٧ .



أسباب العذاب

الله تعالى ﴿فَذَكَاتُ آيَاتِي تُتلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴿٦٧﴾ نَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ المؤمنون
 الآيات من ٦٦ ، ٦٧ .

تبين هذه الآيات الكريمات الأسباب التي جعلت العذاب يحيق بالكافرين، ويحل عليهم بلا نصره أو شفاعته..
 لقد جاءتهم آيات الله دلائل واضحة ومعجزات باهرة، تحمل النور والهدى وتدعو للحق والخير، لكنهم نكصوا على أعقابهم، أى رجعوا إلى السوء، والمراد أنهم تباعدوا عن الحق ونفروا منه، وفروا فرارا شديدا، فلم يهتموا إليه استماع وعى وتفكر، ولم يلتفتوا إليه التفات تأمل وتدبر..

وكان تراجعهم استكبارا عن متابعة الحق، وأنفة من قبوله على أيدي المرسلين المصطفين الأخيار، وقالوا- كما حكى القرآن كثيرا:-
 ﴿مَا نُرِنَا إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نُرِنَا إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدْوَى الرَّأْيِ وَمَا نَزَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نُنظِّمُهُمْ كَذِبًا ﴿٢٧﴾﴾ هود الآية ٢٧ . قالوا لنوح عليه السلام..

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾
الزخرف الآية ٣١، قالوها لمحمد ﷺ .

ولم يكتف هؤلاء بالنكوص والاستكبار بل اتخذوا آيات الله هزوا، وجعلوا من الوحي المنزل والرسول المصطفى مادة لسمرهم الفاحش.. فإن قوله تعالى ﴿ بِئْسَ ﴾ له تعلقان: الأول أن يتعلق بقوله ﴿ مُتَكَبِّرِينَ ﴾ ويعود الضمير على نكوصهم أي أنهم تراجعوا عن الحق مستكبرين بتراجعهم.

والثاني أن يتعلق بقوله ﴿ سَنِمْرًا ﴾ ويعود الضمير على الوحي والرسول أي سامرا بالوحي والرسول تهجرون، فقد أفحشوا القول باتخاذهم الوحي والرسول مادة لسمرهم واستهزأتهم..

إن عذاب الله لهؤلاء الكافرين هو العدل المطلق، إنهم قوم لم يستشعروا نعمة الآيات وتراجعوا عن تأملها، واغلقوا منافذ الوعي لديهم، وغلبت عليهم حمية الجاهلية، فخسروا الدنيا والآخرة..

